

الفلسفة من الأفكار المجردة إلى الحياة الواقعية

محاضرة أقيمت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ٢١ صفر ١٤٤٣هـ الموافق ٢٨ سبتمبر ٢٠٢١م



رانية العرضاوي

أستاذة جامعية

لعل هذا العنوان يمثل صورة من صور الفلسفة التطبيقية التي هي من الحقول الأكثر هجرًا وبعْدًا في المشهد التفلسفي العربي.

ويحاول هذا المقال أن يكون إعلانًا جليًّا عن الانفكاك من الفيلسوف المبهرج كما سماه فتحي التريكي في كتابه (فلسفة الحياة اليومية)، ذلك الذي يسجن نفسه في برجه العازل العاجي، متحدِّثًا بما لا يُفهم؛ رغبةً في أن يمارس الأنوية المتسلطة على العقول المحيطة به من خلال أداة الغموض البليدة. ويمارس المقال استجابة لنداء الإرادة الفلسفية اليوم في سعيها الحثيث إلى تبني حالة الانفكاك هذه، والخروج من إطار التفلسف البعيد عن التوظيف التطبيقي، فقد "آن الأوان أن نعود إلى تطوير الفلسفة بمعناها الحقيقي؛ تلك التي تهتم كما يقول الفارابي بالإفضاء إلى النظرية أولاً ثم بالإفضاء إلى العملية"، وفي ذلك إثبات لما عبّر عنه نيتشه في رأيه المتضمّن أنّ التفكير الفلسفي قد ينجح في تحسين ذلك الجزء من العالم الذي ما زال قابلاً للتغيير.

وينطلق في طرحه الآتي من الإيمان بأن التفكير الفلسفي بشكل عام يستطيع أن يتماهى مع تمظهرات العالم المعيش ويمكن أن يقدم معالجات لمشاكله الصغيرة والكبيرة.

وقفه مع مفهوم المجرد

بداية لا بدّ من التعرّيج على المقصد من القضايا المجرّدة أو المفاهيم المجرّدة، وهو ما قد وُسِمَ بتعريف ما لا يُعرّف، فالفلسفة مليئة بمفاهيم مجردة ووُصفت بالمجردة لأنها أشياء تعرّف بحدودها، كما يقول هيثم الماجد: "فإذا كان حدّها الأوحد أن لا حدود لها". فالتعريف أشبه بالتناقض المنطقي الذي يدور في حلقة مفرغة بين البحث عن الحدود بغرض الإدراك، ونفي هذه الحدود للوصول إلى البعد المجرد، ومن ثمّ يغدو التجريد السّمة أو هو الحد الوحيد لها.

وبعض هذه المجردات قد ألبست على القارئ بطبيعتها، أعني قارئ الفلسفة، أو أعطته غموضاً مفهوميّاً وتأرجحاً بين الماضي والحدود مثل مفاهيم: العقل، والحرية، والحب، والألم، والسعادة وأشياء كثيرة أخرى.

والسؤال هنا: كيف تكون الفلسفة تجريدية في وجودها؟

ستجد بأن هذه المجردات في الفلسفة تتموضع عبر ارتكازات بعيدة عن السياق متحررة من سلطته، أو منفكة عن النسق، مقابل المفاهيم التي تتموضع عبر ارتكازاتها السياقية. وسيجد القارئ بأنّ المجردات قد تحمل مفهوماً في حالة انقطاعها عن البناء السياقي، دون نجاحها في التجسير مع متصلات مادية خارجية أو بناء لغوي سياقي، ممّا يعني أنها هي معنى مجرد أو حد مجرد جاء بعيداً عن السياق، وهذا أدى إلى إرباك إدراك هذه المجردات من جهة، ومن جهة ثانية إرباك إحلالها في اليوم العادي البسيط، ومن ثمّ تحويلها إلى مفاتيح يرحى من خلالها كسر أبواب ومغاليق المجردات القابعة في بناء العزلة. وبدون غمر هذه المجردات وهذه الحدود الفلسفية وسط النسق الذي تعمل فيه ستبقى وراء عوازل التداول القائمة بينها وبين المستعمل لها، وبين المدرك رغماً من



مركزيتها الضمنية للمعنى. إذ يوجد معنى ضمني في داخلها لكنها منقطعة عن النسق، مما يؤدي إلى انقطاع المعنى الضمني عن الاتساق، وهو ما يجعل استعمالها تداوليًا في العالم المعيش أمرًا متعذرًا على الكثير.

وهنا تأتي ثورة السؤال الفلسفي حيال الأنساق لارتفاع بالمجردات من عالمها المعزول في وسط كتب الفلسفة إلى نسق اليومي والمعيش العادي؛ حتى تحدث هزة ودهشة في منعطفات الوعي والمعنى وتدخل في زوايا العمومي والشامل.

محاولة السؤال الفلسفي

وعبر السؤال الفلسفي يمكن فتح صباح اليومي وخوض الفكرة الفلسفية بتساؤل بكرمع خطوط الفجر الأولى، فيشرق السؤال كما أشرق السؤال الإنساني الأول عندما بحث عن الخلود وتساءل ما الموت؟ ووقف أمام حقيقة موت اليوم وولادة اليوم المتكررة، إنها صباحات العقل المتفلسف ببساطة.

بل إن تشكلات السؤال (بماذا لو؟) سوف تُشرع لنا النافذة على ضوء شمس المعرفة المتميزة: ماذا لو لم أستيقظ هذا الصباح؟ ماذا لو استيقظت في جسد عصفور بجناحين يقف على شجرة اللوز التي أهزها كلما مررت من ذات الطريق إلى العمل صباحًا؟ مثل هذه الأمثلة أشبه بمعابر بين (العلوي التجريدي الصعب) إلى (اليومي المعيشي البسيط). ويكون السؤال بالتالي محاولتنا الأولى لنقلة التجريدي إلى الواقعي.

كما تطرح بين أيدينا الأسئلة الأخرى التي تدخل في علاقتنا الثنائية، وقد نصل عبرها إلى فكرة مفادها: ليس صحيحًا أنه في كل ارتباط طوعي بين شخصين يجب أن يكون أحدهما سيدًا مطلقًا على الآخر، ماذا لو أنني لا أسيطر على الطرف المقابل لي؟



وهنا تبدأ مرحلة البحث عن كينونة محتملة في مخيلة المدرك هو منطقة قلق ستبعث لاحقاً على الراحة والراحة من قيد الطبيعة التي تتلبسها الذات كل صباح من وراء الأسئلة، ورتياب الفكرة. هذه المغامرة التساؤلية وغيرها من المغامرات ضاربة بجذورها في ميثولوجيا الإنسان، مغامرة لم تفارقه ولم تتركه حتى في مدينته اليوم وفي الحالة الإسمنتية التي تحيط به، هذه التساؤلية ليست حكراً على طبقة دون أخرى؛ بل هي ليست خاصة بالرجال دون النساء، وليست خاصة بالعمال دون المدراء؛ هي طفولية في وجودها البالغ، وكلما تمسك بها عقل المدرك كلما كان حُرّاً في تطويع المجردات الفلسفية العليا والارتفاع بها إلى حقل المتداول المدرك، وبالتالي ترى المقال بأنّ تداول هذه المجردات في اليومي المعيش هو رفع من قيمتها وليس نزولاً بها.

التخلص من رهبة الفلسفة

إنّ الإيقاع المتعالي للمجردات يحمل ثقلاً سمعياً يكلف الضمير المدرك رهبة تعاطي الفلسفة، ويأتي التساؤل المفترض لماذا نحن نخاف الفلسفة؟ لماذا نخشى من الفلسفة؟ لماذا تُجهل خوفاً أو رهبة؟

لعلّ سبب هذه الرهبة ذلك الثقل القادم من التعالي للمجردات والمفاهيم العليا في الفلسفة، وخلع قلنسوة الرهبة يكون بدءاً بالتمسك بروح الظاهرة التي يمكنها أن تحتضن المجرد في سياق اليومي. وقد أخذت هذه الرهبة شكل الترف الفكري في حياة الإنسان المعاصر، وجعلت من التفلسف مهمة خاصة تحوزها فئة مجتمعية موسومة بالفراغ ومطّ الوقت، والخلو من لهاث لقمة العيش حتى ظنّ أنّ الفلاسفة من أغنى أغنياء المجتمع.

وإذا كانت لفظة اليومي تحيل إلى مفردة (اليوم أو يوم) وترتبط



مبدئيًا بالتكرار؛ أي الأمر الذي يتم تكراره فيصبح ضمن دائرة اليومي، فإنها عرضة لوسم الاعتياد المملّ، وهو ما شكّل الحُجُب عن فلسفة - هذا المملّ - وقراءة جانبه العميق، وهو أيضًا ما سلبه حق التأمل المشروع، إذ جُرِّد المجرّد من السياق والنسق واليومي، مقيّدًا بالتكرار في سياق التكرار ونسقه.

مثال على ذلك، مفهوم العقل المجرّد مقابلًا لتداولية مفردة (العقل) اليومي الذي قد يكون رديفًا للحكمة أو التطرّف أو الصبر أو الجنون، إذ من الممكن وصف إنسان بأنه عاقل لأنه يطيع الأوامر أو متطرف أو مجنون، ونقول: (هذا طفل عاقل)؛ لأنه يطيع الأوامر التي تلقى عليه بلا مقاومة أو سؤال أو إرادة حُرّة. ولو أردنا أن نعرض هذا الوصف اليومي على المفهوم التجريديّ لوجدنا أننا نجده فلسفيًا: طفلاً أسيّرًا مسلوب الحرية أو منقوص الإرادة، فيبدو اليومي أسيّرًا للنسق اليومي، وفي الوقت ذاته يكون اليومي حرًا من النسق (التجريدي أو المفهومي). بالتالي تظهر الانشغالات اليومية (الطعام، والشراب، والآلام، والأفراح، والعمل، والمشى، والرياضة، والضحك، والنوم، وحتى النكتة وحتى البكاء وغير ذلك، تظهر هذه المكرورات اليومية متخليّة عن بريقها بسبب سَمَتها التكراري ونسقيتها التكرارية، لكن اليقظة الفلسفية التي قد تصاحب المتأمل لها ستنقلها إما إلى بئر العذوبة أو حفرة القذى، وستراوحها بين المكرور والمتأمل، ومن ثم تخرجها من الضرورة والسذاجة المغلّفة إلى الفعلية الواقعية القابلة للتغيير المفاهيمي، ومن ثمّ المطورة للسلوك الإنساني اليومي، وهذا مقصد نبيل عظيم.

من التفرّد إلى المشاركة

لكن ماذا لو خرجت هذه الانشغالات اليومية من الذات إلى انشغالات بعيدة عن الخاص واقتحمت دائرة المشاركة؟ ماذا لو

أنها نظرت الذات في انشغالاتها اليومية إلى انشغالات الآخر؟ لربما استطاع المدرك المتأمل عندها افتضاض عوالم جديدة يميز بها اليومي ويصبح لهذا اليومي كينونته غير المتكررة أو المتجددة. والسؤال هنا هل سيسهم هذا الخروج في تشكيل كينونة الذات؟ هل سيتمد بجسره إلى عقول وصفت بالفلسفة لتكون يوميات العادي المكرور متقاطعة مع يوميات الخارق الفريد؟

هذه الدعوة إلى المشاركة في العالم المعيش كانت سابقة وقديمة، ولعلها كانت وراء ما فعله هوسلر في محاولاته لتجاوز أزمة العالم المعيش ظاهريًا، وعبر تجاوز أزمة العلوم في أوروبا آنذاك بعد الحرب العالمية الأولى والثانية عندما نادى بالعودة إلى أصل الأشياء. ولكن ماذا لو أن أصل الأشياء اليوم سرقة النسيان وسط المكرور فالتبس على المدرك بهويات أخرى؟ عندها ستظهر فلسفة الرفض للمعلوم/المكرور والتخلي عن الحكم المسبق، للتحرر من ذنب المكرور إلى نعمة التخلق المتجدد. هنالك ستتجلى حالة الرفض للتفلسف عبر السخرية من مخالفة المألوف في الحياة، وحتما سيواجه الذي يخالف المألوف ويتعامل معه بتفلسف جديد ما واجهه الفلاسفة من قبله؛ بل قد يغدو موضع التهكم، وتصح عندها ذات الضحكة التي وصفها أفلاطون في نقله عن حكاية طاليس مع المرأة التي تنبأ أمامها بكسوف الشمس وفق دراساته الفلكية، ثم ذهل ووقع في حفرة، فقالت له ضاحكة أني لك أن تعلم كل شيء عن السماء يا طاليس وأنت لا تستطيع أن ترى ما تحت قدميك.

هذه السخرية ستكون سلوكًا رافضًا يطلقه العاقلون والعمليون كما يقول أفلاطون وهذا ما نراه اليوم أمام محاولة تجاوز اليومي والمألوف بطريقة خلاقة، ولكن لماذا؟

المألوف بين الفتنة التكرارية والدهشة الفلسفية

إنّ قوة المعيش تبرز في تماسكه وتمسكه بالروتين اليومي، وتخلخل هذا التماسك يرفع راية التأمل الحُرّ من قيد المعرفة القطعية، لأن هذا هو الحق وهذا هو القطعي ولاشيء سواه. وتنزاح هذه القطعية تدريجيًا كلما كان هنالك التشعب المشترك مع آخر متأمل بدوره، مختلف بشكل ما، لفتح كُوّة مفهومية تحوّل فتح باب مكتبك كل يوم على ذات المشهد إلى لوحات بأصوات مختلفة، اختلافها في ألوانها في ضجيجها الخاص الذي يتأتى مع نوع البخور الذي تحرقه في مكتبك كما أحرقه أجدادك في الغابة، أو ربما لون الحذاء الأحمر الذي اخترته لخطواتك طلبًا للشورة على ضعف قدميك الحاصل بسبب الشوكة العظمية التي تئنّ منغرسه وأنت واقف أمام لوح التدريس؛ فيصبح الجزء اللوني في يومك متحكّمًا في الكل المعيش بالحمرة الثائرة على الاعتیاد، ويخضع ألم قدمك إلى محاولة التحرّر من فكرة الخطوة المتألّمة إلى الخطوة النشطة المتعالية على الألم، وتعزّف بحمرة الوردة الدّامعة زمنًا ينجح في تقليص زمن الألم رويدًا رويدًا، إنك تحجّر الألم في ذات لونية غير متوقعة خارقة في خطواتها تموج في وجودية متعالية.

يذكر ميشيل دو سارتو في كتابه ابتكار الحياة اليومية "أنّ الإنسان يملك فطرة دفيئة يتسلح بها في فكره وبراعته الذهنية القادرة على إحباط الفخاخ التي تستهدفه فيخرج من الاستهلاك إلى الامتلاك"، فبدلًا من ممارسات يومية مستهلكة يمكن أن يتحول المعيش إلى لحظات امتلاك يتم تدويرها إلى الابتكار الخلاق. مما يعني أنّ لحظية الخلاق قد تخفف من الانغماس في البرهة الممتدة للاستهلاك الإنساني في الذات اليومية، وهو من ثمّ سوف يسوق اليومي إلى منطقة الدهشة، هذه الدهشة مطلب غالٍ اليوم لدى الإنسان المعاصر بل تكاد أن تكون مستحيلة، فنادرًا ما نستطيع

أن نندهش! والتساؤل الآن: كم مرة أدهشك سؤال طفل عن لون السماء المتبدل بفضل الغيم؟ كم مرة عشت الدهشة في أسبوعك المنصرم؟ هل حزت حالة الاندهاش التي تهزّ المملّ المحجوب في يومك؟ كم مرة ضحكت باندهاش ولم تضحك من شيء روتيني؟ هل ضحكت مرة من شيء مسبق الرؤية مرات ومرات؟ يذكر جان هرش في كتابه الدهشة الفلسفية أن الدهشة هي الخاصية المميزة للإنسان وهي أساس الشرط الإنساني وهي التي تنجي الإنسان من حالة الاستهلاك وتنقله الي حالة الامتلاك.

ومن أبسط أشكال الاستهلاك التي كان لها الأثر العظيم في جعل التعليم في عالمنا هو استهلاك فعلي: فهنا لوجود ثنائية القراءة والكتابة؛ فأصبحت الكتابة مقرونة مع القراءة أو جمع وربط بين القدرة على القراءة والقدرة على الكتابة، على عكس ما كان في الماضي، إذ كانت القراءة مستقلة في مسار خاص عن الكتابة، وفي الفعل المعجمي الذي هو القراءة والفعل الكتابي الذي هو حصول أو إنتاج النص.

هذه اللزومية الاستهلاكية أخرجت الكتابة عن الامتلاكية الراقية وجعلتها عنصراً مستهلكاً، فالיום يوجد آلاف الكتاب لكن قليل أن يوجد منتجٌ نصي ناجٍ من خطيئة التكرار.

السلام الفلسفي المفقود

إن التشكلات التقنية اليوم تمارس السلطة على الذات وتلعب على العقل لعبة القمع، قمع الخيال الممتع، قمع الاستقلال عن الروتيني، وتنتج ما أسميه بالسلوكيات البكماء، وهذا يعيد التوقف مع سلامنا الفلسفي المفقود. فمن الممكن جداً أن لا نشعر بالسلام التأملي لليومي المعيش بسبب التقنية المنتجة لهذه السلوكيات المنقطعة عن التواصلية الإنسانية. وهذا الوصف ليس ببعيد عن مدّ



منتدى الثقافة
الثلاثاء

Thulatha Cultural Forum

يدك وأنت مغمض العينين كل إفاقة لالتقاط الهاتف الجوّال، حتى تنقّب في مواقع تواصلك الافتراضي مع العالم السجين وعقلك خلف الشاشة، وتبدأ عندها انغماسك في دوامة استهلاكك، ثمّ خرّس اليوم بالخضوع والتراتبية وفق الوارد في سلالك الإلكترونية وبرامجك التواصلية، وتغيب أنك الصباحية المتأملّة لحظة بعثك بعد انتقالك إلى كينونتك الغافية، ولربما حتى تنسى قصّ حلمك المرافق لساعات نومك المحسوبة، وهنا تعلن تسليمك السلام الفلسفي إلى سلطان الحرب مع الزمن التقني، لاهثاً وراء الاعتيادي اليومي، وهذا ما يجعلك ضمن اتجاهات الخدائع الجمعية الاعتيادية ويحول بينك وبين العودة إلى أصالة الأشياء، إلى شرب كأس مائك الصباحي الذي يعيد إلى دورتك الدموية نشاطها، أو يحرمك من مشهد ابتسامة شريكك وعين الشمس الشاخصة إليك لتكون كما قال دو سارتو (الكل ولا أحد).

إن مشهد الرؤوس المتدلية في المطار مثلاً، المراقبة للأجهزة تعطي طابع التحكم عن قرب، التحكم في المدخل والسلوك والمنتج؛ لكن ماذا لو اختفت الأجهزة وارتفعت الرؤوس لتتأمل السقف وخطوات الطفولة؟ وتربط بين أحذية السائرين المسافرين الراكضين وحذاء فان جوخ عند هايدجر مثلاً!؟ ألن يتخفف اليومي من عنفه؟ ألن يتقوقع المتنمّر في كهف الإنسان؟ ألن يغلق الباب على الشتائم ويفتح باب شكرًا وعذرًا ولطفًا؟ عندها قد تكون كما عبّر الشاعر هوراس (سيدّ نفسك ستعيش في ابتهاج). يمكنك عندها أن تقول كل يوم: لقد عشت، وهذا مما يجعل الحاجة إلى الفلسفة حاجة ضرورية.

خاتمة

يلجأ الناس إلى الفلسفة في هذا العصر-الذي ليس من المبالغة أن أسميه بالمجنون- دونما قصد، وذلك عندما يشترتون كتب



النصائح والإرشادات، ويظهر كيف تسربت الفلسفة إلى كل الطبقات الثقافية المختلفة، بعدما كانت حقلًا حصينًا منيعًا معقدًا، لا يمدّ يده إليه غير المتخصصين. إنها اليوم في جوهرها الساعي إلى المساعدة والسلام والطمأنينة وسط العصر الأكثر فوضى وسيلة لإعادة الارتباط بالإنسانية، والعودة إلى القيمة الحياتية.

إنّ الحاجة إلى الفلسفة اليومية ليس ترفًا بل ضرورة للوصول إلى دائرة النور (دائرة الدهشة)، والخروج من المعَمَى الإنساني الذي قُيِّدت ظلّمته بفعل السرعة واللهاث والبلاستيك ورنّة الرسالة الصباحية المملة، وولادة لحظة الفلسفة اليومية ممكنة في تفاصيل العادي وجعله ابتكارياً أمر ليس بالبعيد، ولا مشاحة من خلط اللحظتين: لحظة الفلسفة ودهشة الحذاء الأحمر الذي سيضحك منه العاديون حولك. إنها السبيل لمقاومة المادية الهمجية وتمييع الفضيلة، بل هي إحدى طرائق التحرك تجاه التحضر، وعدم السكون إلى فج الفكر وعنف الاختلاف، وهي وسيلة ذكية لتطوير نمط الحياة الإنسانية في التعامل مع الآخر وإعادة الفضيلة للفضيلة، ومقاومة الانحدار تجاه المادي المتصنّع الذي يؤديه صوتُ الغطرسة المتقلّد قوسَ النصر أمام العاطفي الطبيعي الذي نفتقده.

